أدب

علي بدر... تلك الحرب التي لا شفاء منها

في روايته الجديدة «أساتذة الوهم» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، يتناول الروائي العراقي لوثة الشعر وعبثيّة الحرب. أبطاله جنود على الجبهة العراقيّة الإيرانيّة يخترعون حيوات أخرى على تخوم القصيدة

إيلي عبدو

ثمّة الكثير من التقاطعات بين رواية علي بدر الأولى «بابا سارتر» (2001) وروايته الأخيرة «أساتذة الوهم» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر ــ 2011). عوالم المثقّفين، أوهامهم في تمثّل الأفكار الكبرى، عيشهم في زمن متخيّل. كل ذلك يطبع العملين. رغم التوصيف الحيادي في الظاهر، يستبطن عمل بدر الكثير من السخرية والتهكّم، في تناوله لغربة المثقف العربي عن زمانه. تبدو هذه التيمة في نصوص الروائي العراقي (1964) سياقاً تلقائياً أدبياً وجمالياً، أكثر ممّا هي حالة نقديّة. يفكّك صاحب «مصابيح أورشليم» حيوات أصدقائه من المثقّفين والشعراء والأدباء. بعد تشريحه الكاريكاتوري لعلاقة المثقفين العراقيين بالفلسفة الوجودية في «بابا سارتر»، يتطرّق بدر في «أساتذة الوهم» إلى لوثة الشعر التي اخترقت حيوات ثلاثة شبّان، شهدوا الحرب الإيرانية العراقيّة. شعراء جنود، يحملون البندقية بيد، ويكتبون القصيدة بيد أخرى. يتلقّى الراوي رسالة مكتوبة بلغة بسيطة من روسيا، فتكون الذريعة الأولى للسرد. يطوّرها الكاتب لاحقاً بأدوات أخرى، تنسجم مع تقنيات أعماله السابقة. في رسالتها من بلاد بوشكين، تسأل طالبة الأدب ليلى السماك الراوي عن معلومات وتفاصيل تتعلق بشعراء الثمانينيات في العراق. الهدف إجراء مقاربة بين الشعراء الذين عايشوا مرحلة الحرب الإيرانية العراقيّة، وحكم صدام حسين، ولم ينشروا شيئاً من شعرهم من جهة، وشعراء روس مجهولين اختبروا حقبة مشابهة، ودخلوا السجون والمعتقلات خلال الحكم الستاليني من جهة أخرى. وتحدّد ليلى في رسالتها ثلاثة من أولئك الشعراء: عيسى، والراوي الناجي الوحيد من الحرب، وأخوها منير. ستكون الرسالة باباً للراوي كي يسترجع سيرة مرحلة كاملة عاش مع أصدقائه في متاهاتها.

سنقرأ عن منير الشاعر الذي يؤدي الخدمة العسكرية، ممسوساً بالأدب الروسي، فيترجم ما يقع عليه من شعر ونصوص، ويتفاخر بأنّ أمه من أصل روسي، وصديقة شخصيّة للأدباء الروس. الشاب الحالم الذي لطالما سار في شوارع بغداد، متخيلاً نفسه في سان بطرسبرغ، يحيا في فانتازيا خاصّة. يتأثر بالديوان الخارق للدكتور إبراهيم، الذي يخدم في وحدة الميدان الطبي، ويطلق عليه أصدقاؤه لقب الدكتور «فاوست». سيقتل منير في الحرب مع إيران، ليكتشف أصدقاؤه أنّه لم يكن يعرف الروسية، بل كان يتوهم ذلك. وأنّ الأشعار التي ترجمها لهم، كانت من إبداع مخيّلته.

يفرد الكاتب المساحة الأكبر من السرد لعيسى، الذي تأخذه أوهامه إلى مراحل متقدّمة من الانفصام عن الواقع. يتماهى مع قصائده، ليعوّض بها عن قبح شكله الخارجي. سيقهر فقره المدقع، وعمله كبائع للخضار بالبحث عن عوالم أخرى، تجعله في مستوى أشهر الأدباء في أوروبا. عيسى الذي عاش حياته بين المغامرة والجنون، سيهرب من خدمته العسكرية، ويبقى ثلاثة أشهر متخفيّاً عن الأعين، لكنّه سيسلّم نفسه في النهاية، حين يصدُر عفوٌ عام عن الهاربين من الجيش. غير أنّ السلطة تتهم الشاعر الحالم بتأسيس تجمّع سياسي محظور، ليجري إعدامه بعد أسبوع واحد من تاريخ القبض عليه.

> يبتعد عن سرد تفاصيل الحرب ومجرياتها ويستخدمها خلفية للنص

يتجاوز علي بدر في روايته هذه، مهمّة تسليط الضوء على مرحلة محددة من حياة الثقافة العراقية. يعمد إلى تمريغ الشعر في وحول الحرب وقذارتها، من دون أن يعرّض القصيدة للتلوث. هذا ما يفسر ابتعاده عن سرد تفاصيل الحرب ومجرياتها، واستخدامها خلفيّة لنصّه فقط. كأنّ بدر أراد أن ينتصر الشعر على الحرب، بعدما انتصرت الحرب على أوهام أولئك الشعراء الجنود، ودفعتهم إلى مصائر عبثية... أقلّها الموت.

المثقف والموت والخراب

من خلال سيرتَي منير وعيسى، سيرسم علي بدر صورة أوسع لواقع المثقّفين العراقيين في زمن الحرب والموت والخراب. يحكي عن اهتماماتهم، وقراءتهم، وتأثرهم بالكتّاب الأوروبيين، وانفصال طموحاتهم عن الواقع. يأخذنا الكاتب إلى مقاهي بغداد وأحيائها وأزقّتها. صاحب «خرائط منتصف الليل» الذي أرشف فيه رحلاته إلى العديد من المدن في العالم مستطلعاً مطارحها السرية، يتقن التوغل في الأمكنة ونبش خصوصياتها. شخصيات مختلفة تمر في النص، تبرز حالة الشتات العراقي في تلك الأمكنة، وتكشف حقبة من تاريخ وجع بلاد الرافدين.

الشعر بوصفه خشبة خلاص

هيفاء بيطار*

منذ الصفحات الأولى لـ «أساتذة الوهم»، أدركت أنني أطلّ على عمل مدهش وآسر. يأسر علي بدر القارئ، ليس بسحر أسلوبه وثقافته، بل بالعمق الإنساني والوجداني في قراءته للحياة الإنسانية. موضوع الرواية بسيط ومشحون بالشجن. إنه عن مجموعة شعراء عراقيين هم جنود في الوقت ذاته. فكرة تبدو بسيطة، بل مسليّة أيضاً، كما لو أنّه من الممتع أن يجري الجمع بين البندقية والشعر. برع علي بدر في تحليل شخصيات الشعراء المجندين، لكنّ البطل الرئيسي في الرواية هو عيسى، المولع بقراءة سير الشعراء الغربيين، الذي تعلّم الروسية والألمانية ليقرأ أعمالهم. كان كلّ وجود عيسى يتلخّص في كلمة واحدة هي الشعر، لكن ثمّة إرادة عليا فضّلت له قدره وشخصيته بجعله جندياً، وزجت به في الجبهة، ليجد نفسه مشروعاً للموت في الحرب العراقية الإيرانية.

عيسى لا يمثل الشاعر فقط، بل إنسان اليوم أيضاً، وخصوصاً في الأنظمة الاستبدادية. لا يمكنه أن يكون ذاته، ولا أن يحقق ما تتوق إليه روحه، لأن هناك قوة تهرس إرادته، وتشوه موهبته. وكما يقول علي بدر على لسان عيسى: «هناك شخص واحد، دكتاتور، قائد أمة، مُخرج يقف أعلى مسرح يحترق، والشعب ممثّلون يتابعون إلقاء أدوارهم، وهذا القائد هو صدّام حسين».

يُنكر عيسى حياته كجندي، فهو يتماهى مع بودلير وإليوت وغيرهما من الشعراء العالميين، ويتساءل: «هل يمكننا أن نكون شعراء عالميين ونحن في بغداد؟» يقرّر عيسى الفرار من الجيش والعيش متخفياً ومتسلّحاً بكتب الشعر.

الشعر بالنسبة إليه هو المُخلّص من عدمية الحياة والجبهة. يعيش في أزقة الفقراء، يقرأ ويحلم ويكتب ويترجم. عيسى الذي سكن في علب الصفيح البائسة، هارباً من حكم الإعدام الذي صدر بحقه كخائن، قرأ مذكرات غاندي، ورسائل نهرو إلى ابنته، وكان يريد قراءة طاغور قبل تنفيذ حكم الإعدام به. كيف يمكن لإنسان مرهف الإحساس وشاعر مبدع أن يموت تحت لافتة الخيانة العظمى؟ يُعدم عيسى، ويموت أصدقاؤه الشعراء ميتات مختلفة، لكنهم جميعاً ضحايا حروب الكبار، إنّهم جنود رغماً عنهم، فصّلوا لهم الثياب العسكرية وأعطوهم بنادق، وقذفوا بهم إلى الجبهة. يطرح علي بدر في «أساتذة الوهم» أسئلة وجوديّة ومصيريّة مهمة: هل يملك إنسان اليوم نفسه؟

> إنسان اليوم يقتل ببساطة إذا خالف القوة العظمى

أليس مُصادر الإرادة؟ إنسان اليوم يُقتل بكل بساطة إذا خالف القوة العظمى، إذا تجرأ ورفض القدر الذي فصّله له الدكتاتور، والتّهم جاهزة، كإضعاف الشعور القومي، والخيانة، والمسّ بهيبة الدولة...

ذكرتني «أساتذة الوهم» بمسرحية لهنري إبسن هي «ثورة الموتى» عن جنود يرفضون أن يدفنوا، لأنّهم يريدون أن يعودوا إلى زوجاتهم وحبيباتهم وأولادهم. «أساتذة الوهم» تخضّنا في العمق، وتقذف بنا إلى قلب الحقيقة، وتفجر فينا حسّ الكرامة التي لا معنى لوجودنا من دونها: إلى أيّ مدى سنقبل أن نكون أداة في يد قوى عظمى؟

* روائية سوريّة